باسمه تعالى

الرحلة العلميّة بين إيران والعراق

د. جعفر المهاجر

تحت العنوان البارع الذي اخترتموه لمؤتمركم (التفاعُل الحضاري بين إيران والعراق) لا بدّ من الوقوف على التفاعُل الثقافي . ذلك لأنّه هو الذي يكمُنُ خلفَ الحضاري ويمنحُهُ المعنى . بحيث يمكننا أن نقول أنّه من المُستحيل أن نفهمَ عناصر التفاعُل الحضاريّ ، دون أن نعرفَ أرضيّته في الفكر وطرائقه ، الذي هبط إلينا من الأسلاف .

القاعدة الذهبيّة تقول : ما من معرفةٍ دون تواصُل . حينما أنعمَ بارينا سبحانه علينا بنعمة بالمعرفة كتب عليها أن لا تكونَ إلا ابنةَ تواصُل العقول والأفهام . لا تصدّقوا ما يُقالُ لكم عن ابن طُفيل أو حيّ بن يقظان أو روبنسون كروزو . ذاك ضلالٌ وتضليل ، وإنْ يكُن جميلاً .

نحن اليوم نتمتّع بوسائل التواصُل السهلة والسريعة والفعّالة . التي توصِلُنا بمصادر المعرفة الغنيّة دون جُهد ودون أن نتجشّمَ مشقةَ التواصل . الكثيرون منّا يستمتعون بذلك ويرونه نعمة . أمّا أنا فأراه يُفقِدُ المعرفةَ تلك الخصوصيّةَ الرّائعةَ . إذن فلا نستغرب أنّ هذا النمط يُنبتُ معرفةً غير حميمة ، تفتقرُ إلى الدفء . أين العلاقة مع الآلة من العلاقة بين المُريدِ والشيخ ، والتلميذِ والأُستاذ ، والمُجازِ والمُجيز .

سلفُنا كان إذا أراد أن يُعلّم أو أن يتعلّم فعليه أن يشدّ الرحال ، وأن يُوطّنَ النفسَ على المسافات . وكان ذلك يُذكَرُ في سجلّه . فإذا وُصف عالِمٌ أو مُحدّثٌ بأنه رُحَلَة ، يعني أنّه ارتحل كثيراً للقاء الشيوخ أو ارتحل إليه طالبو السّماع ، كان ذلك بمثابة تنويهٍ عالٍ به .

الطريقُ بين البلديَن الأخوين إيران والعراق كانت دائماً وما تزال عامرةً بالغادين والرّائحين من حَمَلةِ الحديث وطالبيه ، والعلماءِ وطُلاّبِ العلم . بحيثُ يمكنُ القولُ أنّه ما من بلديَن من بُلدان الإسلام يمكن أن يُماثلَهما في هذه العلاقة الحميمة . ومن الغنيّ عن البيان أنّ البلديَن كلاهما نالتهُ بركةُ هذا التواصل الخلاّق . ونحن

طبعاً لن نخوضَ عُبابَ هذا البحث . سنؤدّي أمانةَ العنوان بأُنموذجين نعتقدُ أنّ لهما صفةَ الأساس الذي بنى عليه البانون من بعد .

الأُنموذج الأوّل : الهجرة الأشعريّة . والأشعريّون قومٌ يمانيّون هاجروا من بلادهم يومَ جاء نصرُ الله والفتح، لينزلوا الكوفة مع مَن نزلها من أهل اليمن . ولكن لم يكُن لهم فيها حضورٌ مذكور شأنَ مواطنيهم الهمدانيين ، مثلاً ، في الأحداث التي ضجّت بها الكوفة ، منذ أن اختارها الإمامُ أميرُ المؤمنين عليه السلام لتكون عاصمةً له . فكأنّ المقادير كانت تُخبّئ لهذه الجماعةِ الصغيرةِ نسبيّاً في المستقبل غير البعيد دوراً فاصلاً غير مُتوقّع سيبقى أثرُهُ على مَرّ الزمان .

بدأت حظوظُ هذه الجماعة يومَ اضطُرّتْ اضطراراً إلى الخروج من وطنها الجديد بعد أن استقرّت فيه زهاء السبعة عقود ، هرباً بنفسها من بطش الحجّاج بن يوسف . ما بين السبعين والثمانين رجلاً انطلقوا بنسائهم وأطفالهم هائمين على وجوههم ، مضوا شرقاً باتجاه غرب إيران، لا يطلبون غير الأمن . إلى أن وصلوا بقعةً لا يسكنُها أحد . أرضها مستنقعاتُ ملحٍ وآجامُ قصب . عُمّارها الأفاعي والعقارب . كانت تلك الأرض فرصتهم الوحيدة للعيش ، لا لشئ إلا لأن لا أحد يُريدها أو يُطيق السُّكنى فيها .

كان أولَ امتحانٍ لمعدنِ أولئك الرجال ، أن يجعلوا تلك الأرض قابلةً للعيش . والمُدهشُ أنهم ، ربما بفضل الاضطرار ، نجحوا بذلك . وما يزال المجرى الذي حفروه ، لتصريف المياه المستنقِعة ، قائماً وسطَ قُمّ ، يؤدّي وظيفته في تصريف مياه الأمطارالقادمة من الجبال غربيّ المدينة . ولو انّ الزمان أفصحَ لأولئك الرجال المُنهكين عن مآلِ عملهم ، وهم يضربون معاولَهم في الأرض الصلبة ، لأراهم كنوزاً أبقى من تلك التي بَرَقَتْ لأعيُن بعض الذين كانوا يحفرون الخندق يومَ الأحزاب .

الغريبُ أنّ ليس في تاريخ تلك الجماعة ما يدلُّ على أنّه كان لأحدٍ من الأشعريين في الكوفة أيَّ اهتمامٍ فكريّ . ومع ذلك فإنها أنجبت في وطنها الجديد البعيد خلال قرنين تقريباً ما يزيدُ على مائة مُحدّثٍ وعالِم . إنها أكبرُ أُسرةٍ علميّة في الإسلام . على الرغم من أنها عاشت في بقعةٍ قصيّة معزولة . وأعتقد أنّ الفضل في ذلك يعود إلى توجيه ورعاية الإمام الصادق عليه السلام . وأنا أُحبُّ أن أعتقد أنّ نهوضَ قم الأشعريّة ، بوصفها أوّل قاعدة فكريّة شيعيّة ، تأسّس فيها أساسُ البحث

الشيعي المنهجي، هو ثمرةُ عملٍ مقصود ومُخطَّطٍ له للإمام . رمى إلى تأسيس مركزٍ علميٍّ بعيدٍ عن بلبال السياسة وأهلها . الأمرُ الثابت أن رجال الأشعريين المُعاصرين له كانوا يتلقّون منه رعايةً كاملة مادّيّةً ومعنويّة .

تلك الرحلة القسريّة التي بدأت بعيدةً كلّ البُعد عن العلم وشجونه ، قد انتهتْ إلى إقامة مركزٍ علميّ كان له دورٌ تأسيسيّ بالغ . انداحَ باتجاه الريّ وما وراء النهر. وعبرهما إلى العالَم الإسلامي وما نزالُ نلمسُ بركتَه حتى اليوم .

إنني أُهيبُ بالأخوة الباحثين الإيرانيين أن يولوا بحث نشأة قم ودورِها وانتشارِه الأهميّةَ التي يستحقها . هناك تفاصيلُ كثيرةٌ جدّاً وأعمالُ ومواقفُ رجال ينبغي أن تُركّب في اتجاه تكوين صورةٍ عن العمل الذي كان عالقاً فيها في تلك الحقبة التأسيسيّة ذات الأهميّة ، الذي نعلمُ إجمالاً أنّه اتجه إلى تدوين الحديث ونقده وتبويبه . وأعتقد أنّ دراسةً كهذه إن وصلتْ إلى أغراضها ستكشفُ لنا بعض أسرار تاريخنا الثقافي .

الأُنموذجُ الثاني : هجرةُ الشيخ الكُليني إلى بغداد . ومعلومٌ أنّ الكُليني الرّازي ، نسبةً إلى الرّيّ ، ولكنّه أخذ في قُمّ عن مُحدّثيها . وكان شيخَ الشيعة في الرّيّ في زمانه . وهذه كما قلنا قبل قليل ابنةُ قم أيضاً .

ما يهمّنا الآن من سيرة الشيخ الحافلة هو هجرتُه إلى بغداد ، حيث أمضى السنوات الأخيرة من عمره وتوفي فيها . وفيها نشرَ كتابَه الشهير(الكافي) الذي "يجمعُ من جميع فنون علوم الدين ما يكتفي به المُتعلّم ويرجع إليه المُسترشد" . وكان له فيها مجلسُ علمٍ حافلٌ . يمكنُ اعتبارُه أوّل مجلسٍ علميّ شيعيّ من وزنه في عاصمة الدنيا آنذاك . وبالتالي فاتحةَ حضورٍ علميّ للشيعة فيها . تابعه من بعده الشيخ المفيد، فالسيّد المرتضى ، فالشيخ الطوسي رضوان الله على الجميع . ممّا يكفي على سبيل الإلماح ، وبقدر ما يتسع له المقام ، لبيان أثرهجرة الكليني إلى بغداد . هنا أيضاً بابٌ للبحث مفتوح برسم الباحثين العراقيين . فعسى أن تلتقى الجهودُ في جيلنا كما التقتْ لسلفنا الصالح . لنقول مع القائلين :

نبني كما كانت أوائلُنا تبني

—